

لقد فهمت عنه شهرزاد، وهي تجيبه بلسان لم ينعقد، وصوت لم يحتبس، ووجه يستطيع أن يُبين عما يجده قلبها من حزن لاذع وغيظ يملؤه الحنق ورحمة مع ذلك يملؤها الحنان: «انظر يا مولاي! هؤلاء ضحاياك! هذه الكائنات التي تشبه الطير وما هي بالطير، أتعرفها؟! إنها نفوس أولئك الفتيات اللاتي أرسلتهن إلى الموت منذ ثرت ثورتك المنكرة بالنساء فاتخذتهن أداة للهوك ووسيلة إلى إرضاء ما أفسد قلبك من غضب وما أفسد نفسك من انتقام.»

تستطيع أن تحصي هذه الكائنات فسترى عددها مطابقاً لعدد أولئك الفتيات اللاتي أهدرت كرامتهن في غير حب، ثم أزهقت نفوسهن في غير إشفاق، فهذه النفوس قائمة في هذه الجنة التي تشبه الجحيم، أو في هذا الجحيم الذي يريد أن يكون جنة فلا يستطيع. إنها بائسة، إنها يائسة، إنها شاكية، إنها باكية، إن هذه الأصوات التي تسمعها تنطلق بالبؤس واليأس والبكاء والشكاة منذ أرسلتها إلى هذا المكان حتى تؤدي عنها حساباً يومياً ما، فاذرف ما تستطيع أن تذرف من دموع، واحمل ما تستطيع أن تحمل من حزن، واعمل ما تستطيع أن تعمل من خير، وتجرع ما تستطيع أن تتجرع من ندم، وأقم على هذا كله عمرك وأعماراً كثيرة تعدله طولاً، فلن تغسل قطرة من تلك الدماء التي سفكتها، ولن تُرضي نفساً من هذه النفوس التي أزهقتها، ولن تمحو سيئة من هذه السيئات التي اقترفتها إلا أن يمسك جناح من رحمة الله، وينالك فضل من عفوه؛ فإن الله في الناس حكمة هو بالغها، وأمرًا هو منفذه.

ثم يرق صوت شهرزاد ويلين حتى كأنه رحمة كله، وإذا هي تقول: «ومع ذلك — بل من أجل ذلك — قد أحببتك أيها الملك، وتحديت عندك الحب والملك والموت جميعاً، وما أدري كيف أعلل هذا الحب أو كيف أفهمه؟ فقد كنت أظن أنني أبغضك أشد البغض، ولو لم أرف إليك لقتلت نفسي جزعاً ويأساً، وقد كنت أظن أنني أستطيع أن أردك عن ذلك الإثم المنكر الذي كنت غارقاً فيه، وما كان أحب إليّ مع ذلك أن أنعم بحبك ليلة ثم أدوق الموت بيدك وأتي إلى حيث أشارك هذه الطير فيما تعلن من بؤس ويأس وبكاء وشكاة، وقد كنت أقدر بعد أن ذقت حبك ونعمت بقربك أنني سأرد الموت عن نفسي وعن أمثالي من فتيات الدولة بما ألهيك به من قصص، وقلبي يشهد ونفسي تعلم أنني ما ألهيتك بالقصص إلا لأستأنف النعيم بحبك وأطيل السعادة بقربك؛ فقد كنت أثرة أظهر الإيثار، وكنت محبة لنفسني أزعم فداء غيري من النساء، وكنت كلفة بإثمك البشع أريد أن أشرب كأسه من يدك وأؤخر شرب هذه الكأس ما وجدت إلى تأخير سبيلًا.